الكتب

مذكراتي في نصف قرن

بقلم الأستاذ أحمد شفيق باشا

(في ٥٢٧ صفحة كبيرة — طبع مطبعة مصر)

لم يجتمع لكثير من رجال الدولة المصرية مثلما اجتمع لصاحب السعادة الأستاذ أحمد شفيق باشا من ظروف للمشاهدة وفرص الدرس والاطلاع والتحقيق ؛ فقد عاصر هذا الشيخ النابه النشط عدة عصور ومراحل من تاريخ مصر الحديث ؛ وشهد الحياة المصرية منذ أواخر عصر اسماعيل ، واتصل بالقصر وشئون الدولة العليا منذ حداثته ؛ وشهد حوادث الثورة العرابية وتتبعها بدقة ، وكان مرجع النفوذ والحول طوال أيام عباس . ولم يكن شفيق باشا يطوى هذه المراحل والعصور مشاهداً فقط ، ولكنه كان يقرن المشاهدة بالدرس والتدوين ؛ فكان يدون مذكراته تباعاً عن الحوادث والشئون الخطيرة التي كانت تترى في هذه الحقبة من تاريخ مصر ، ويدون الى جانبها كثيراً من الملحوظات عن تطور الحياة المصرية الاجتماعية ، ثم عن حياته الخاصة التي كانت صدى ومثالاً صادقا لهذه الحياة .

وقد أخرج لنا الأستاذ شفيق باشا الجزء الأول من هذه المذكرات في مجلد ضخم ؛ يتناول وصف الحوادث والحياة المصرية منذ أواخر عهد اسماعيل حتى عزله ، ثم عهد توفيق والثورة العرابية وأسبابها ونتائجها حتى استقرار الاحتلال الانكليزي . وهذا هو القسم التاريخي العام . ويتناول القسم الثاني منه حياة المؤلف الخاصة أثناء دراسته في باريس ، ومشاهداته العامة في فرنسا ومختلف البلاد الأوربية التي زارها .

ولعله لم يصدر عن الحياة المصرية في أواخر القرن وصف أصدق ولا أمتع من ذلك الذي يتحفنا به شفيق باشا في مذكراته . فقد تقلب شفيق باشا منذ حداثته في مختلف البيئات والمجتمعات المصرية لهذا العهد ، واتصل بالطبقات الاجتماعية الرفيعة اتصالاً وثيقاً ؛ وشهد بعينه من صورها وألوانها الشيء الكثير ؛ ووصف لنا جدها وهزلها ولهوها وسمرها وصفاً صادقا شائقاً ؛ ويجد مؤرخ الحضارة المصرية في هذا العصر في مذكرات شفيق باشا مادة نفيسة تؤيدها المشاهدة الصادقة . وهذه ناحية من الكتاب لها أهميتها وسحرها .

بيد أن لهذه المذكرات من الوجهة التاريخية ناحية أهم . ذلك أن المؤلف يقص علينا سيرة الحوادث السياسية الخطيرة التي وقعت في عهد توفيق ، أعني الثورة العرابية وما انتهت إليه من النتائج المشئومة . وقد كتب تاريخ الثورة العرابية وما إليها في العصر الأخير غير مرة ، وصدرت عنها مذكرات كثيرة مصرية وأجنبية ، ولكن شفيق باشا ينفرد بمعالجة ناحية لم تعالج من قبل بمثل ما عالجها به من الافاضة والدقة ، ولم يكن ليستطيع معالجتها غير شفيق باشا نفسه . ذلك هو موقف القصر ووجهة نظره وحقيقة تصرفاته إزاء تلك الحوادث العصيبة . وقد كان شفيق باشا يومئذ من موظفي القصر ، ومن الرجال الذين يضع فيهم الخديو ثقته ؛ وكان بذلك في مركز يستطيع أن ينفذ منه الى بواطن الأمور وحقائقها وأن يعرف حق المعرفة ما يقع في القصر وما يدبر فيه وما يقال نحو الحوادث وتطوراتها ، وأن يقف على وثائق لا يقف عليها غير رجال القصر الأخصاء ؛ وهذه الناحية تبدو واضحة قوية في رواية شفيق باشا عن الثورة العرابية ، وتلقى الضياء على مسائل وشئون كثيرة في تاريخ الثورة لم تقف عليها من قبل بمثل ذلك الوضوح . وهذه الميزة وحدها تجعل لمذكرات شفيق باشا قيمة كبيرة ؛ هذا الى ما يتخلل ذلك كله من النبذ الاجتماعية والأدبية التي تمثل روح العصر وأحواله أصدق تمثيل .

فنهنىء الباشا بمجهوده القيم ، ونرجو الله أن يمتعه بالصحة والعافية حتى يخرج لنا ما تبقى في جعبته من ذلك التراث القومي النفيس ؟

«ع»